٤ ــ أزواج عبد الملك بن مروان

جاء في «تاريخ الخلفاء» للإمام «السيوطي»: «عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب»، أبو الوليد، ولد سنة ست وعشرين، بويع بعهد من أبيه في خلافة «ابن الزبير» فلم تصح خلافته، وبقي متغلباً على مصر والشام، ثم غلب على العراق، وما والاها، إلى أن قُتِلَ «ابن الزبير» سنة ثلاث وسبعين، فصحَّت خلافته من يومئذ، واستوثق له الأمر، ففي هذا العام هدم «الحجاج» الكعبة، وأعادها على ما هي عليه الآن، ودَسَّ على «ابن عمر» من طعنة بحربة مسمومة، فمرض منها ومات، وفي سنة خمس وسبعين، سار «الحجاج» إلى المدينة، وأخذ يتعنَّت على أهلها، ويستخفُّ ببقايا مَنْ فيها من صحابة رسول الله ﷺ، وخَتَم في أعناقهم وأيديهم، يذلُّهم بذلك ـ أذلَّه الله يوم يعرض عليه ـ كأنس، وجابر بن عبد الله، وسهل بن سعد الساعدي، فإنا لله وإنا إليه راجعون[1].

كان «عبد الملك» معدوداً في فقهاء المدينة المرموقين، كسعيد بن المسيَّب، وعروة بن الزبير.

وقال عنه الشعبي: ما ذاكرْتُ أحداً إلَّا وجدت لي الفضل عليه، إلَّا «عبد الملك» فإني ما ذاكرته حديثاً إلَّا زادني فيه، ولا شعراً إلَّا زادني فيه.

تسلَّم الخلافة والبلاد الإسلامية تسودها الفرقة والفوضى والخلافات والاضطرابات، إلَّا أنه استطاع بقوة عزيمته، وشدة بأسه أن يجمع الناس على كلمة سواء، وقضى على «مصعب بن الزبير» فدانت له العراق، ثم أرسل «الحجاج» إلى قتال «عبد الله بن الزبير» في الحجاز، فتمكن من قتله وصلبه، وغدر بعمر وسعيد بعد أن أمَّنه وكان ذلك أول غدر في الإسلام، وقضى على خصومه أجمعين.

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ١٩٠.

وذكر «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: وفي «الأوائل للعسكري» بسنده: كان «عبد الملك» أول من كتب في صدور الطوامير ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص، الآية: ١] وذكر النبي ﷺ مع التاريخ، فكتب ملك الروم: إنكم أحدثتم في طواميركم شيئاً من ذكر نبيكم، فاتركوه، وإلَّا أتاكم من دنانيرنا ذكر ما تكرهون، فعظم ذلك على «عبد الملك» فأرسل إلى «خالد بن يزيد بن معاوية» فشاوره، فقال: حَرِّمْ دنانيرهم، واضرب للناس سِكِكاً فيها ذكر الله وذكر رسول الله ﷺ، ولا تعفهم مما يكرهون في الطوامير، فضرب الدنانير للناس سنة خمس وسبعين.

قال «العسكري»: وأول خليفة بَخِلَ «عبد الملك» وكان يسمى «رَشْحَ الحجارة» لبخله، ويكنى «أبا الذِّبَّانِ» لِبَخْرِهِ.

قال: وهو أول من غدر في الإسلام، وأول من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء، وأول من نهى عن الأمر بالمعروف، ثم أخرج بسنده عن ابن الكلبي، قال: كان «مروان بن الحكم» ولَّى العهد «عمرو بن سعيد بن العاص» بعد ابنه، فقتله «عبد الملك» وكان قتله أول غدر في الإسلام، فقال بعضهم:

يا قوم لا تُغْلبوا عن رأيكم فلقد ... جَرَّبتُم الغدر من أبناء مروانَا
أمسوا وقد قتلوا عَمْراً وما رشدوا ... يدعون غدراً بعهد الله كَيْسانَا
ويقتلون الرجال البُزْلَ ضاحيةً ... لكي يولُّوا أمور الناس ولدانَا
تلاعبوا بكتاب الله فاتخذوا ... هواهُمُ في معاصي الله قرآنَا

وأخرج بإسناد فيه الكديمي، وهو متهم بالكذب، عن ابن جريج، عن أبيه، قال: خطبنا «عبد الملك بن مروان» بالمدينة بعد قتل «ابن الزبير» عام حج سنة خمس وسبعين، فقال بعد حمد الله والثناء عليه:

أما بعد، فلست بالخليفة المستضعف ـ يعني «عثمان» ـ ولا الخليفة المداهن ـ يعني «معاوية» ـ، ولا الخليفة المأفون ـ الناقص العقل ـ يعني «يزيد» ـ، ألا وإن من كان قبلي من الخلفاء كانوا يأكلون ويطعمون من هذه الأموال، ألا وإني لا أداوي أدواء هذه الأمّة، إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم، تكلفوننا أعمال المهاجرين، ولا تعملون مثل أعمالهم، فلن تزدادوا إلا عقوبة حتى يحكم السيف بيننا وبينكم، هذا «عمرو بن سعيد» قرابتُه قرابتُه، ومَوْضِعُه مَوْضِعُه، قال

برأسه هكذا، فقلنا بأسيافنا هكذا، ألاَ وإنا نحمل لكم كل شيء إلا وثوباً على أمير أو نصبَ راية، ألا وإن الجامعة التي جعلتُها في عنق «عمرو بن سعيد» عندي، والله! لا يفعل أحد فعله إلَّا جعلتها في عنقه.

والله! لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا، إلا ضربتُ عنقه، ثم نزل.

ثم قال «العسكري»: و«عبد الملك» أول من نقل الديوان من الفارسية إلى العربية، وأول من رفع يديه على المنبر.

وقد أخرج ابن أبي شيبة في المصنف بسنده، عن محمد بن سيرين، قال: أول من أحدث الأذان في الفطر والأضحى بنو مروان، فإما أن يكون «عبد الملك» أو أحداً من أولاده.

وقال «يوسف بن الماجشون»: كان «عبد الملك» إذا قعد للحكم قيم على رأسه بالسيوف.

وقال «الأصمعي»: قيل لعبد الملك: يا أمير المؤمنين! عجل عليك الشيب، فقال: وكيف لا، وأنا أعرض عقلي على الناس كل جمعة؟

وقال ابن عائشة: كان «عبد الملك» إذا دخل عليه رجل من أفق من الآفاق، قال: اعفني من أربع وقل بعدها ما شئت: لا تكذبنني فإن الكذبوب لا رأي له، ولا تجبني فيما لا أسألك فإن فيما أسألك عنه شغلاً، ولا تُطْرِني فإني أعلم بنفسي منك، ولا تحملني على الرَّعية فإني إلى الرفق بهم أحوج[1].

وقال ابن أبي عائشة: أفضي الأمر إلى «عبد الملك»، والمصحف في حَجْره، فأطبقه وقال: هذا آخر العهد بك[2].

وقال يحيى الغساني: كان «عبد الملك بن مروان» كثيراً ما يجلس إلى «أم الدرداء» فقالت له مرة: بلغني يا أمير المؤمنين! أنك شربت الطلاء بعد النسك والعبادة، قال: إِي والله! والدماء قد شربتها[3].

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ١٩٣ ـ ١٩٤.
(٢) تاريخ الخلفاء، ص: ١٩٢.
(٣) تاريخ الخلفاء، ص: ١٩١.

قال «أحمد بن عبد الله بن العجلي»: كان «عبد الملك» أبخر الفم ـ له رائحة نتنة ـ، وإنه ولد لستة أشهر[١].

قال السيوطي: قلتُ: لو لم يكن من مساوىء «عبد الملك» إلَّا «الحجاج» وتوليته إياه على المسلمين وعلى الصحابة ﷺ، يهينهم ويذلهم قتلاً وضرباً وشتماً وحبساً، وقد قتل من الصحابة وأكابر التابعين ما لا يحصى فضلاً عن غيرهم، وختم في عنق «أنس» وغيره من الصحابة ختماً يريد بذلك ذُلَّهم، فلا رحمه الله ولا عفا عنه[٢].

ومن فخرياته المشينة تكريمه للشاعر «الأخطل» الكافر الفاجر المتطاول حتى عليه وهو أمير للمؤمنين، فقد روى السيوطي عن أبي عبيدة: لا أنشد «الأخطل» كلمته لعبد الملك التي يقول فيها:

ثُـمَّ العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

قال: خذ بيده، يا غلام! فأخرجه، ثم أَلْقِ عليه من الخِلَعِ ما يغمره، ثم قال: إن لكل قوم شاعراً، وشاعر بني أمية «الأخطل».

وقال «الأصمعي»: دخل «الأخطل» على «عبد الملك» فقال: ويحك! صف لي السُّكْرَ، قال: أوله لذة، وآخره صداع، وبين ذلك حالة لا أصف لك مبلغها، فقال: ما مبلغها؟ قال: لَمُلْكُكَ يا أمير المؤمنين! عندها أهون عليَّ من شِسْعِ نعلي، وأنشأ يقول:

إذا ما يذمني عَلَّني ثم عَلَّني ثلاثَ زجاجات لهن هديرُ
خرجتُ أجر الذيلَ تيهاً كأنني عليك أميرَ المؤمنين أميرُ[٣]

فما أشقى الرعية التي يسوسها أمير كعبد الملك بن مروان!

وأما عن نسائه وأبنائه فذكر «ابن عساكر» في «أعلام النساء»: «عائشة بنت موسى بن طلحة بن عبيد الله» التيمية، فولدت له «بكار بن عبد الملك»[٤].

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ١٩١.
(٢) تاريخ الخلفاء، ص: ١٩٥.
(٣) تاريخ الخلفاء، ص: ١٩٦.
(٤) أعلام النساء، ص: ٢٤٢.

ثم «عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية» أم البنين الأموية، وأمها: «أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر بن كريز» روى عنها «مهاجر» والد «عمرو بن مهاجر» الأنصاري، وقد ولدت لعبد الملك ولديه «مروان» و«يزيد» ابني «عبد الملك»، وزاد الطبري: «معاوية» و«أم كلثوم».

وعن عبد الله بن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر، قال: لما أراد «عبد الملك» الخروج إلى «مصعب بن الزبير» ناشت ـ تعلقت ـ به امرأته «عاتكة بنت يزيد» وبكت، فبكى جواريها معها، فجلس، ثم قال: الله قاتل ابن أبي جمعة ـ وهو الشاعر كُثيرٌ عَزَّة ـ حين يقول:

إذا ما أراد الغزو لم يثن همه ... حَصان عليها نظم دُرٍّ يزينُها
نهته فلما لم تر النهي عاقه ... بكت فبكى مما عراها قَطِينُها

القطين ـ الخدم والحشم ـ، ثم مضى.

وعن محمد بن حبيب، قال: كانت «عاتكة بنت يزيد بن معاوية» تضع خمارها بين يدي اثني عشر خليفة كلهم لها مَحْرَم.

أبوها «يزيد بن معاوية» وأخوها «معاوية بن أبي سفيان»، وزوجها «عبد الملك بن مروان، وأبو زوجها «مروان بن الحكم» وابنها «يزيد بن عبد الملك»، وبنو زوجها «الوليد» و«سليمان» و«هشام»، وابن ابنها «الوليد بن يزيد»، وابن ابن زوجها «يزيد بن الوليد بن عبد الملك»، و«إبراهيم بن الوليد المخلوع»، وهو ابن ابن زوجها أيضاً[1].

وعن ابن جندب قال: استأذنت «ابنة يزيد بن معاوية»، «عبد الملك بن مروان» في الحج، فأذن لها، وقال: ارفعي حوائجك، واستظهري، فإن «عائشة بنت طلحة» تحج، وإن أقمت كان أحب إليَّ، فأبت، فرفعت حوائجها، وتهيأت وَجهَّزها.

فلما كانت بين مكة والمدينة ـ حرسهما الله تعالى ـ أقبل ركب في جماعة،

(١) المحبر لابن حبيب، ص: ٤٠٤.

فضعضعها وفَرَّق جماعتها، فقالوا: «عائشة بنت طلحة»، فإذا ذلك مع جارية من جواريها، ثم جاء ركب في موكب مثله، فقال: ماشطتها، ثم جاء موكب أعظم من ذلك، في ثلاثمائة راحلة، فقالت «عاتكة»: ما عند الله خير وأبقى.

عن الزهري، قال: دعاني «عبد الملك» في قراء من قراء أهل دمشق، قال: فدخلنا عليه، وإذا امرأته «عاتكة بنت يزيد بن معاوية» جالسة، وابن لها صغير مريض، قال: فأخذنا ندعو، وأخذ هو يدعو فقال: بحق مكاني الذي وضعتني، قال: فلم يبرح حتى مات، قال: وكان هو أشد جزعاً من أم الصبي، فلما مات صبر، قال: قلت: يا أمير المؤمنين! إن كنت أشد جزعاً منها، وهي الساعة أشد جزعاً منك، فقال: إنا نجزع من الأمر ما لم يقع، فإذا وقع صبرنا.

بلغني أن «عاتكة بنت يزيد» بقيت حتى أدركت قتل ابن ابنها «الوليد بن يزيد بن عبد الملك»[١].

ـ تزوج «وَلَّادة بنت العباس بن جَزْء بن الحارث بن زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قطيعة بن عبس بن بغيض» أم الوليد العبسية[٢]، وعندالطبري:

«الوليد» و«سليمان» و«مروان الأكبر» ـ درج ـ و«عائشة» أمهم «ولَّادة».

ـ و«أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان» ولدت له «الحكم» ـ دَرَج ـ.

ـ و«أم المغيرة بنت المغيرة بن خالد بن العاص» ولدت له «فاطمة». وعبد الله ومسلمة المنذر وعنبسة ومحمد وسعيد الخير والحجاج، لأمهات أولاد.

ـ وشقراء بنت سلمة، وابنة لعلي بن أبي طالب ﷺ، وأم أبيها بنت عبد الله بن جعفر. وكانت وفاة «عبد الملك» منتصف شوال سنة «٨٦ هـ»[٣].

---

(١) أعلام النساء، ص: ٢٤٤ ـ ٢٤٥.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص: ٣٦٧.
(٣) تاريخ الطبري (٦/٤١٨ ـ ٤٢٠).